

مُقَدِّمَةُ الْمُقَارَنَةِ الْإِثْنَيْنِ الْمِلِّيَّةِ

أ. د. محمد بن زروق

عميد الكلية

في مجال الدراسات الدينية يوجد عدان متميزان هما :

« تاريخ الأديان » و « مقارنة الأديان » وكل من العليين يمتاز عن الآخر بموضوعه والهدف من دراسته .

فعلم « تاريخ الأديان » يعني بدراسة نشأة الدين ، وهواملي انتشاره أو انحصاره ، والأطوار التي مرت به أو مر بها ، كما يعني بدراسة محتوى الدين ، والمصادر التي استقى الدين منها محتواه هذا . وذلك بصورة إجمالية .

أما علم « مقارنة الأديان » فيعني بدراسة الأديان مقارناً بعضها ببعض سواء من حيث النشأة والانتشار ، أو من حيث المحتوى عقائد وأعمال . وهذا هو الأهم ، أو هو المقصود الأصلي .

واضح من ذلك أن « تاريخ الأديان » علم يقوم على دراسة دين واحد كما يمكن أن يدرس أكثر من دين . أما « مقارنة الأديان » فلم لا تكون دراسته إلا من خلال دينين أو أكثر ، ذلك أنه يقوم على المقارنة والمقارنة لا تكون إلا بين اثنين لو أكثر ، والدراسة في مقارنة الأديان تقوم على التحليل والمقارنة ، بحيث يتضح من خلال ذلك ما هو حق وما هو باطل من تلك الأديان مثله في محتواها من العقائد والأعمال .

هنا ما بين العليين من تمايز في الموضوع . أما تمايزهما من حيث المنهج والغاية من الدراسة ، فإن « تاريخ الأديان » قد يكون المنهجي

من دراسته ضرباً من دراسة التاريخ الإنساني والعوامل المؤثرة في مسيرته وتوجيهه ، وقد يكون الهدف ضرباً من ضروب الثقافة الفكرية القائمة على دراسة الثقافة الإنسانية عبر مراحلها المختلفة ، وقد يكون الهدف هو البحث عن الحق وراء ذلك الزكام الخائل من الأديان التي تكونت عبر المراحل التي مرت بها البشرية .

أما علم ، مقارنة الأديان ، فلا يكون الهدف من دراسته إلا البحث عن الحق من خلال تحليل العقائد والعبادات والمذاهب كنه بصورة تفصيلية . ثم مقارنة تلك المذاهب دين بمذاهبها في دين آخر أو في أديان أخرى . مقارنة تعتمد على ميزان صحيح دقيق نستطيع به أن نميز بين الحق والباطل من محتوى الأديان ، وبالتالي من الأديان نفسها .

وقبل أن ندخل في مجال المقارنة بين الأديان في قضاياها الكبرى ، وخاصة قضايا العقيدة ، من حيث أن القضايا العقيدة هي أصل الدين ، وهي الأساس الذي يقوم عليه كل دين . نقول : قبل أن ندخل إلى مجال المقارنة والموازنة بين الأديان يجب علينا أن نبحث عن الميزان أو المقياس الذي سوف نستخدمه في مقارنة الأديان ، وموازنتها لتفادي الخطأ والغلط وقضاياها المديدة .

والغرض من ذلك الميزان ، واعتباره معياراً للمقارنة أمر بالغ الأهمية ، واعتماد ذلك في بداية البحث ، وقبل أن نخطو فيه أمر ضروري ، فإننا قبل وزن الأمور يجب أن نقرر على الميزان أو الآلة التي نوزن بها . والميزان الذي نبحث عنه يجب أن تتوفر فيه شروط عدة أهمها ما يلي :-

- ١ - أن يكون صالحاً لأن نوزن به الأمور الدينية ، وهي أمور مجردات في أصولها .

- ٢ - أن يكون ميزاناً شاملاً لا يختص بدين دون آخر ، أو بقوم دون سواهم .

٣ — أن يكون في مقناول الباحث وفي إمكانه، فلا تطلب من الباحث المستحيل، ولا تكلفه من أمره شططا .

٤ — أن يكون واضح الحقائق ، سهل المبادئ ، بعيدا عن التعقيدات النظرية التي تثير الجدل ، وتعنى على الحقيقة ، ويعنى آخر : أن يكون مسلما من الجميع ، أو من شأنه أن يكون كذلك .

٥ — ينبغي على ذلك أن يكون ميزانا ملزما للجميع ، فلا يعارض فيه منصف ، ولا يرفضه إلا جاحد معاند . والمعاندون في غير حق لا وزن لهم .

• • •

وقد اجتهد الباحثون عمارين التوصل إلى ميزان تتوفر فيه تلك الشروط التي أمرنا إليها — مع اختلاف يسير بين الباحثين في تلك الشروط — فاختلافوا في طرائق البحث ، ثم اختلفوا في النتائج التي توصلوا إليها .

— فبعض الباحثين انقطع به السبيل ، فليس من وجود ذلك الميزان فاعتمد عقله ووجدانه ميزانا ، وأخطأ يبحث ويقارن بين الأديان معتمدا على ذلك الميزان ، معتبرا عقله ووجدانه ميزانا ملزما للجميع .

ويندرج تحت هذا القسم جمهرة الباحثين في ذلك العلم ، وجل البحوث والمقالات التي كتبت فيه .

وأيضا يخاف بطلان ذلك المنهج الذي يعتمد على وجهة نظر شخصية بحث . إذ كل إنسان يستطيع أن يزعم لنفسه مازعم هؤلاء لأنفسهم (١) .

(١) من هؤلاء جمهرة الباحثين في هذا المجال — مقارنة الأديان — ، هؤلاء لا يعتمدون ميزانا للمقارنة ، ولا يبدو عليهم أنهم يتبنون لذلك ،

والبعض الآخر وصل إلى مقاييس وموازن ، لكن تلك المقاييس على اختلافها وتعدد ما لم تتوفر لها تلك الشروط التي ذكرناها كلها أو بعضها . ومن ثم كانت خيرا وافية بالآخرى .
فهؤلاء وأولئك .

• • •

ونحن حين نعرض الأمور المتاحة التي يمكن أن يتكون منها ميزان توزن به العقائد الدينية فينتج الحق من الباطل ، ويمتاز الطيب عن الخبيث ، فإننا نجد هذه الأمور تنحصر في أمرين أصليين ، وأمر ثالث مساعد . وسوف نقتصر في هذه الأمور واحدا بعد واحد لنرى ما لها وما عليها ، ومن تصلح ، ومن لا تصلح .

أولا : العقل .

والعقل أيا كان تعريفه قهر القدرة المميز والمدركة التي منحها الله تعالى - الإنسان ليعيز بها بين الخبيث والطيب ، ويدرك بها الخير والشر ، فتسقطه إلى الخير ، وتغلقه عن الشر .

سبل يحللون القضايا ويبحرونها ، ثم يمدون أحكامهم لتتلاقص عقائدهم وما يدينون .

وفرق أن بحوث هؤلاء قد تكون أدخل في مجال ، تاريخ الأديان ، فإنها غير ملزمة لأصحاب اللل الأخرى ، بناء على أنها قامت على موازين شخصية لا يقرها إلا أصحابها ، ومثل هذه البحوث قد تكون مفيدة لصاحبها ومن على دينه .

الكن العقل في أصله استمداد يتلقى المقولات من الخارج فيسرها
ويحتزنها ، ويوجه الإنسان انطلاقاً منها . فالعقل - إذن - حصيلة العالم
الخارجي ، يتلقى منه ، ويتأثر به ، وينفعل به فيما يصدر منه من أحكام .
ومن ذلك كان حقا ما قيل : إن العقل ابن بيته ، ولئن كانت هذه العبارة
غير صادقة على إطلاقها ، فهي صادقة في الأعم الأغلب ، وبخاصة فيما يتصل
بجانب المعتقدات والوجدانيات التي تنسرب إل الإنسان منذ مولده في
غيبته من عقله . فلا يكاد يبلغ رشده ، وتكتمل فيه القوة المسيرة المظلمة
حتى يكون قد أضى أسير تلك المعتقدات والالتزامات الوجدانية . ويصبح
غير قادر على الخروج عليها أو الانفلات منها ، لأنها تمكنت من قلبه ،
وظهرت بمذورها في وجدانه قبل أن تستكمل فيه القوة التي بها يميز بين
الحق الباطل والخير والشر .

ولعل هذا يفسر لنا ذلك الأمر الذي يبدو عجيباً ، حين نرى الرجل قد بلغ
من الذكاء وقوة الفهم مبلغاً عظيماً ، حتى ليشتبه بين الناس بقوة الفهم وشدة
الذكاء ، ورغم ذلك تهده بهتلق من المعتقدات ماهر واضح العقول بدهي
البطلان بكل المقاييس ، ويفسر لنا أيضاً تعصب أصحاب الأديان الباطلة
لأديانهم رغم وضوح بطلانها ، وظهور الحق في غيرها .

يتضح مما تقدم أن العقل - على إطلاقه - لا يصالح مقياساً تقيس به
الأديان ، ونقيم على أساس منه علم مقارنة الأديان . وقد يصالح مع شروط
وتحفظات ندينها فيما بعد - بحمد الله تعالى - .

• • •

ثانياً : للفطرة .

نأتي بعد ذلك إلى الفطرة الإنسانية . أو تلك القوة المدركة المعيزة التي
تأتي في المرتبة الأولى من قوى الإنسان الهادية المهيمنة . ويتركب منها وبين

القوة العاقلة بأن العاقلة تهيأ أحكامها على أسباب واضحة جلية ، وتصدر عن حجة وأدلة برهانية . أما القوة الوجدانية فتدرك وتميز وتصدر أحكامها بشكل مبهم غير واضح ظاهراً . ولا تخضع أحكامها لأسباب جلية ، أو برهان منطقية .

وقد يستقيم العقل مع الفطرة ، وقد يتعارضان ، فإن يقتضيه العقل بأمر ما بناء على أسباب وخطأ واضحة ، لكن الإنسان - رغم ذلك - يكون منقيض النفس ، ضيق الصدر ، رافضاً لذلك الذي رضىه العقل . وعلى كل فإن الفطرة هي النور الرباني ، والسر الإلهي الذي فطر الله - تعالى - الإنسان عليه ، وإذا استقام في الإنسان ، وسلك الإنسان على مقتضاه عرف ربه ، وأدرك الخير وأحبه وزممه ، وأدرك الشر ومقته واجتنبه .

لكن الفطرة السوية تدلوها الوسواس الخناس ، وما يزال . لو شأ في الآباء ، وتولى الآباء نقل جرثومة الفساد والاضلال إلى الأبناء ، فانتشر الفساد ، وهم الضلال مجتمع الإنسان إلا من رحم الله وقليل مأمم ، بل هم أقل من القليل في هذا الزمان .

يقول الرسول - ﷺ - إشارة إلى هذا المعنى الذي ذكرناه : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو يمجسانه ، أو ينصرانه .. الحديث » . وواضح أن المراد بالفطرة في الحديث هو الدين الحق : الإسلام . بدليل مقابلتها بالاديان الباطلة . فالأبوان أفسدا فطرة الأبناء . والذي أفسد فطرة الابوين هم أبائهم ، وهكذا تصل إلى جرثومة الفساد وهو الشيطان الذي بدأ العمل بنفسه ، ثم جتد له جنوداً من الجنة والناس .

ويقول الله - سبحانه - إشارة إلى أنه - تعالى - أقام فطرة الإنسان على مقتضى دينه :

[فأقم وجهك للدين حنيفه فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله

ذلك الذين القيم فاقه — سبحانه — قد فطر الناس على مقتضى دينه الحق —
ولكن الشيطان أضل الناس وأفسد قلوبهم ، كما أوضح الحديث الثرى بهم .

والفطرة بهذا المعنى لاتصلح — بل لإطلاقها — مبرانا يؤذن به الأديان ،
أو فيصلا بين حقها وباطلها . وقد تصلح — ولكن ليس على إطلاقها ، بل
لأنها من تحفظات وعقود لا يجوز بها من فساد الفطرة ، حتى نستطيع أن
نستعين بها في هذا المجال ، وهذه التحفظات نذكرها في حينها — إن شاء
الله — تعالى — .

• • •

ثانياً : التجرد

نأتي بعد ذلك إلى الأمر الثالث الذى أشرنا إليه قبلاً ، وقبلنا أنه ليس
أصيلاً كالعقل والفطرة . بل هو أمر يساعد لسكناها . يعين كلا منهما على
البحث والتحليل وإدراك الحق بعيداً عن عوامل التعصب الأعمى ، والهوى
المضل . وهذا العامل حقيق — إذا أحسن الأخذ به — أن يخرج الباحث
من مجال التعبير المتكلف لما يعتق ، إلى مجال البحث الصادق عن الحق .
والإقرار به ، ولو كان على خلاف معتقده وما يدين .

ونعني بذلك عامل والتجرد ، ويراد به أن يتجرد الباحث تجرداً كاملاً
عن التعصب لمعتقده ووجهه وكل اتبائه جملة ، ثم يبدأ بحثه بعيداً عن
تلك العوامل التى تؤثر في نظراته إلى الأمور ، وتقويمه لإياها ، وبالتالى في
أحكامه التى يصدرها .

وحينئذ نادى بمنهج التجرد ، قوم من الغرب منذ وقت ليس بالبعيد —
احتفل السككروين بالمنهج وواضعه — أو مكتشفه — بالمعنى الصحيح — .

وأشادوا به وأعلمه ، فطابق أن المشكلات كلها قد حلت باكتشاف ذلك المنهج .
وأن الحقائق أصبحت بواسطة واضحة الملامح ناصعة الجبين .

وبعد أسفا هؤلاء خطايين .

الأول : أن المنهج قديم وليس حديثا كما يظن واضعوه ومؤيدوه . فلقد جاء القرآن الكريم بذلك المنهج منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنا من الزمان .
ولقد تضمن القرآن الكريم مستويات عدة لذلك المنهج .

منها ما يتصل بالدين ، وتقرير ما هو حق منه وما هو باطل ، من ذلك ما وجهه الله — تعالى — لكفار قريش حين طلب منهم النظر فيما آتى به رسوله — ﷺ — . نظراً يقوم على التجرد في طلب الحق ، بعيداً عن أهوائهم وما يكونون لرسول الله — ﷺ — من أحماد وشفاعة . يقول الله — سبحانه وتعالى — :

(قل إنما أظنكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة) .

ومنها ما يتصل بالفروع في إطار الدين . من ذلك ما خاطب به الله — تعالى — المؤمنين ، أن يتجردوا في القضاء على الناس شهادة أو حكما ، فلا يحيل بهم عن الحق حب أو بغض . يقول — تبارك وتعالى — :

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بها ، فلا تتبعوا الهوى أن تعبدوا ، وإن تلووا أو نرسوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً) .

وهذا المنهج الذي جاء به القرآن الكريم هو المنهج الذي يناسب طبيعة الإنسان ولا يفوق إمكانياته . وسنوضح ذلك فيما يلي — يقول الله تعالى — .

الثاني : وقد أخطأ هؤلاء ثانية حين طلبوا أمراً فوق طبيعة الإنسان ، وقصدوا عنه شيئاً يفرق إمكاناته ، فبدهى أن الإنسان لا يستطيع أن يفقه دينه ومعقده وجلسه وإتقانا ، أنه كلها في لحظة ليبحث قضية ما ، فإذا ما انتهى من بحثه استرد ذلك جملة واحدة ، فدين المرء وقومه ووطنه وميراثه كله ليس فيما يطلعه حين يشاء ، ويلبسه حين يريد ، كذلك من الأمور غير المقبولة أو الملقولة أن يطلب من الباحث إذا ما أراد أن يبحث الأدیان الأخرى أن يفرج دينه جانباً ويتغلب عن معتقده ، وقد عرفنا أن ذلك صعب أشد العسر ، صعب غاية الصعوبة ، وقد بين لنا القرآن الكريم أن الكفار قد عجزوا عن ترك دينهم وهم يدركون بطلانه ، واعتناق الدين الحق وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم يقول — سبحانه وتعالى — :

(ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) .

ويقول — تبارك وتعالى — :

(فلأنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

ونحن — وإن كنا لا نقر تلك العصبيية الجاهلية للباطل ضد الحق ، وندين أصحابها الذين عرفوا الهدى فاختروا الضلالة على الهدى ، فكانوا من الذين أضلهم الله على صم — لا تفعل الأمارات الواضحة في ذلك الدلالة على مدى صعوبة التخل من الدين والمعتقد .

أما ما جاء به القرآن الكريم في منهج التجرّد ، حين طلب القرآن الكريم من كفار قريش أن يحكموا في شأن محمد — صلى الله عليه وسلم — وما جاء به متجردين عن الهوى ، فإن القرآن العظيم لم يطلب من الكفار أن يدعوا نظاماً معشداً ليحكموا إلى نظام مثله . ولكنه طلب منهم ذلك ليحكموا إلى مبادئ العقل وبدهيّات الفعارة ، والإنسان العاقل من شأنه أن يقف عند حدود المسلمات والبدهيّات ، فيلتزم أحكامها ولا يجادل فيها ، ومن المسلمات

محظلاً وفطرة التبرعات التي واصل إليها القوم في شأن محمد — ﷺ — على
مدى يريد على الأربعين عاماً ، فقد عرفوه — عليه الصلاة والسلام — صادقاً
لا يكذب ، أميناً لا يخون ، والمعرفة التي تنبئ على مثل هذا القدر من التجربة
من شأنها أن تكسب اليقين ، وأن تقطع عناد المعاندين .

وهذا هو الذي حدا برسول الله — ﷺ — أن يحرك في الناس هذا
اليقين التجريبي ، ويأفقتهم إلى تلك الحقيقة التي لا يمارى فيها أحد منهم .
وذلك في اللحظة التي صرم على إبلاغهم دعوته . فقال لهم : أو رأيتم لو
أبلغكم أن نبيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أو كنتم مصدق ؟ قالوا : نعم ،
ما جر بنا حبلك كذبا قط .

• • •

الميزان :

هذه الثلاثة التي سبق الكلام عنها — العقل والفطرة والتجربة — هي
ما يدور الباحثون في فلسفها بحثاً عن ميزان مأمون معتبر يقارنون في
خبرته الأديان ، ويزنون العقائد ، وقد اختلف الباحثون فيها بينهم اختلافات
كثيرة ، حصول التوازن نفسه ، وحول الضمانات والشروط التي يجب
مرأتها حتى لا يهيد الميزان عن الحق . وما دنا قد وضعنا أنفسنا في
ذلك المجال ، فلا نمر من أن تدل بطولنا مستعينين الله — وهو المسمان —
بجلالة .

وفي ضوء الدراسة التحليلية الموجزة التي قدمناها عن كل من هذه الثلاثة ،
نفسطح أن نقرر بأن كل واحد من الثلاثة لا يصلح منفرداً ، كذلك لا يصلح
على إطلاقه . لا بد — إذن — من جمع الثلاثة معاً ، كذلك لا بد من وضع
التحفظات التي تضمن أنتاجها والاستفادة منها . فالميزان — في رأينا —

يمكن أن يصاح من الثلاثة متعاونين ، فالمعقل والعصاة يصلحان ، ويمكن
مع تأثرهما بـ«ليث» و«د» شيع فيها من مؤثرات متعددة تجعل من العير أن
تلتقي العقول والمعار لدى الناس في النظريات على كنهه ، وفي الاستعداد
والأمان ، وبسبب إلى العقل والعطارة إعداد يمكن في «اسلمات» والآلات التي
لا يقع مع الجذاب في المشاهدة ، ثم ليس الضيق ليجتاح هذين — العقل
العطارة — إنما يمكن في الأمر الثالث وهو التجرد للحق ، حيث له ، ونحن عنه
ورغبة فيه ، وحرماً عليه ، بعيداً عن الهوى .

• • •

ميزان الذي نراه — إذن — يقوم على العقل والعطارة في اسلمات
والآليات ، بعيداً عن الآراء النظرية التي يتناول حولها الجدل والمناقشة
والعناد ، وتتمتع بها المسائل ، وتنشعب القضايا ، ويصيح الحق وسط ذلك
كله ، وهذا ما قام بحثنا ودراستنا من اسلمات من العقل والعطارة ، وكان بحثنا
مجرداً عن التعصب ، لا للحق ، وعن العرص إلا وصولاً إليه ، تتكون من
مجموع ذلك ميزان جديد بأن يأخذ بأديب إلى الحق ، ويهدينا — إذن أنه
تصل — سورة السبين ، وهو ميزان من شأنه أن يرم جميع العقلاء ، لأنه
يقوم على المسلمات والآراء التي لا تقع فيها صعوبة ، ولا يدور في
مطارف متباد أو مناقشة .

• • •

وعلى الصعوبات التالية سوف نحاول أن نطبق ذلك لبيان الذي اراد به
على مشاء واحد ، هو الاعتقاد في ادب الإله عند كل من المبد
والنصارى .

• • •

الذات الالهية

لاعتقد في الذات الإلهية في دين ما لا يتصح إلا من خلال البحث
في صفات تلك الذات ، إذ أن الاعتقاد في الصفات هو الذي يحدد معالم
الاعتقاد في الذات ، فمن يرى كل ذي دين يؤمن بذات أو خوات إلهية ،
لكي ما تلك الذات أو الخوات ؟ وما حقيقة الاعتقاد فيها ؟ لا يتصح ذلك
إلا من خلال دراسة الصفات التي يعتقد بالمؤمن اقتضاب تلك الذات . .
لذلك سوف نبدأ دراسة الاعتقاد والذات الإلهية ، بدراسة الاعتقاد
في الصفات التي تنصف بها الذات عند المؤمنين بها .

. . .

صفة الوجود

صفة الوجود بالنسبة للذات الإلهية هي الصفة الأم التي يتوقف على
ثبوتها ثبوت بقية الصفات لذات الإلهية . فإذا لم تثبت تلك الصفة فإن
ثبوت الصفات الأخرى يمتنع تلقائياً ، وكذلك إذا ما لحقها نوع من
النقص ، فإن ذلك النقص ذاته ينعكس على الصفات الأخرى فيلحقها ،
لهذا كان الحديث عن صفة الوجود يسبق دائماً الحديث عن الصفات الأخرى
للذات الإلهية — سبحانه وتعالى — .

وصفة لوجود النسبة للذات الإلهية هي غيرها بالنسبة إلى الموجودات
الأخرى ، وذلك أن صفة الوجود بالنسبة لكافة الموجودات — سوى الله —
سبحانه وتعالى — هي صفة غيرية ، بمعنى أنها غير ذاتها ، فهي لم تلحق
الموجودات لذاتها ، بل حقتا لسبب خارج عن تلك القوات فاضل فيها ،
وذلك الوجود الذي لحق الموجودات هو أثر فعله ، هي — دن — موجودة

بعض غيرها ، لذلك صرح أن يقال : إما موجوده أميرها أو من غيرها ،
ودليل ذلك أن تلك الموجودات لم تكن ثم كانت ، بمعنى أنها كانت قبل
وجودها مسبوقة ، ثم وجدت ، ولو كان الوجود يلحقها لكانها قبلت
العدم سابقا أو لاحقا ، لأن ما مالت لا يحلف .

أما لوجودها بالنسبة للذات الإلهية فليس شيئا زائداً على الذات أو غير
الذات ، بل هو عين الذات ، هو صفة ذاته ، وليست غيرية كأي الموجودات
الأخرى ، ولأن الوجود في الذات الإلهية هو عين الذات وليس شيئاً
زائداً عنها ، عرفت صفة لوجود بأنها : صفة نفسية ، بمعنى أنها نفس الذات
وليست غيرها .

ولأن الوجود في موجودات الأخرى غير ذاتها ، فقد صرح أن يضاف
إليها لوجودها ، وأن يسببها فتعني .

أما أدات الإلهية فالوجود عين ذاتها ، لذلك استحسن أن يسببها
لأنه — أصلاً — لم يصب إليها ، ومن ثم فقد دسح أن تنصف بالاعتناء
أو العدم سابقاً أو لاحقاً .

هذا الذي قلناه من صفة الوجود نفس عينها يدبر أو صفة بعضها ،
بل هو من صفات العقل والهمزة لدى المتدينين جميعاً ، وخاصة الأديين
الكتابية ، بل هو من صفات لدى العقلاء جميعاً ، لذلك قد هنا بهذه المسطور
قبل أن ندخل في التفصيلات التي يختلف حولها المتدينون ، ليعلم أن هذه
الحقيقة لا يحتفظ حولها أحد من أتباع الديانات الكبرية ، على الأقل
من الناحية الكلامية ، كما يتضح ذلك في حيزه .

وإذا انتهينا من الكلام عن صفة الوجود بصورة عامة ، قلنا حل بعد
ذلك إلى دراسة عقيدة المتدينين من أهل الكتاب في هذه الصفة ، ولنبداً
بعقيدة اليهود ، ثم النصرى ، والله — سبحانه وتعالى — هو المستعان .
(٢ - مجلة ع ٦ ج ١)

أولاً : في عقيدة اليهود

يعتقد اليهود أن الله — سبحانه وتعالى — موجود ، وأن وجوده — تعالى — أولى لم يهتق بعدم ، ويعتقدون أن الله — عز وجل — كان ولا شيء معه . ثم خلق كل شيء من عدم ، فأوجد العالم كله بكلمة « كن » أو بكلمة « فيسكن » ، ولقد سمى الله — تبارك وتعالى — العالم في ستة أيام ، تبدأ بالاحد وتنتهي بالجمعة ثم ستراح — سبحانه وتعالى — يقولون علوا كبيرا — في اليوم السابع ، ويعتقد اليهود أن الوجود الحق هو وجود الله — تعالى — وكل ما عداه من موجودات فإما إنشأ وجوده عنه — سبحانه وتعالى — .

وعقيدة اليهود هذه عقيدة صحيحة ، وهي العقيدة التي تذهب إليها الفطرة السوية ، ويزيدها الفضل السليم ، ولا يوجد لدين نهى عنها قط ، وإن كان له عود إليها فيما تفرع عنها من نتائج ، ومضى التزامهم بذلك العقيدة عند حديثنا هي بعض الصفات الأخرى وموافقيتها .

• • •

ثانياً : في عقيدة النصارى .

يعتقد النصارى في وجود آلهة ثلاثة ، ويعتقدون أن كل واحد من الآلهة الثلاثة متمصف بصفة الوجود ، مستعللاً من الإلهين الآخرين ، وأن وجود كل من الآلهة الثلاثة هو وجود أول قديم لم يسبق بوجود آخر ، وهم يعتقدون كذلك أن وجود الموجودات الأخرى فرع عن ذلك الوجود الأول القديم ، فوجود الآلهة ذاتي ، ووجود العالم غيري .

ولكني أتصح عقيدة القوم ولستطيع مناقشتها ينفي علنا أن نشرها

و موضوعي من حلال كتبهم للقدس، وشروحهم وأسادتهم وشماهم أيساء،
و سطرهم بكل أمانة وذقة نقل عقيدتهم كما هي عندهم.

يعتقد النصارى في وجود آلهة ثلاثة هم على الترتيب :

١ - الله : الآب .

٢ - الله : الابن .

٣ - الله : الروح القدس .

وهؤلاء الآلهة الثلاثة يستلزم في عقيدتهم مره متماثلة في متصل
بما يصعد السكالية ، فكل إله من هؤلاء الثلاثة موجود ، حي ، مرید ، عليم ،
قادر ، سمیع ، بصیر . . . إلى آخر الصفات الإلهية السكالية ، وكل منهم
مستقل بحد الصفات في ذاته استقلالاً تاماً .

وهم يعتقدون - رغم ذلك - أن هؤلاء الثلاثة ليس مستقل كل
منهم بذاته وبصفاته وأفعاله ، يعتقدون أن هؤلاء الثلاثة إله واحد فقط ،
ولا يسبق إلى ظنك أننا قد بعضنا عمداً بصير النقل من القوم ، وأما
مفتري صميم ، فإننا صدقون في النفس من القوم ، وبن القوم جهادون
في القول لا يبرلون ، هم جهادون في اعتقادهم بآلهة ثلاثة كل منهم مستقل
بذاته وصفاته ، وجاهدون أيضاً في اعتقادهم بأن هؤلاء الثلاثة إله واحد
وحدت واحدة ، وهم يهرون عن عقيدتهم تلك بأنها - تثليث في توحيد ،
وتوحيد في تثليث ، ويصرون أنهم يأتهم . ثلاثة في واحد ، وواحد
في ثلاثة ، وناحد بعض الصرح التي توضح عقيدتهم تلك من كتبهم
وشروح علماءهم .

يقول لككتور يوسف بوست - وهو أحد علماءهم - شارحاً
تلك المذبة : « طسعة الله عبارة عن ثلاثة تأانيهم متساوية : الله الآب ،
الله الابن ، الله الروح القدس ، وإلى الآب ينتمي الخلق بواسطة الابن » .

والإله الواحد ، وإلى الروح القدس التطهير ، غير أن الثلاثة تتفاسم جميع الأعمال الإلهية على السواء ، (١) .

وهذا عام آخر من عبادتهم يوضح عقيدتهم تلك ، ويجاوب أن يقينهم ليس على أن الثالوث أمر بدوي ، وأن الإله الواحد لا يصلح أن يكون إلهاً . بل لابد أن يكون ثلاثة . ولا يصل كونه إلهاً .

يقول عام من عبادتهم المشاهير في ذلك : -

« من الناس من يقول : لم يأتى إله واحد في ثلاثة ؟ أو ليس في العدد تتفاسم نفس الله ؟ أو ليس من الأصل أن يفسد : الله أحد وحسب ؟ لكنك إذا أظلمنا على كنه الله لا يستأ إلا القول بالثالوث ، فكيف قد يحبه ولا يمكن إلا أن يكون محبة لسكون سعيداً ، محبة هي مصدر سعادة الله . ومن طمع المحبة أن لبعض وتنتشر على شخص آخر ، فيصان الماء وتنتشر النور ، من إذن يفرح شخص على الأقل يتعاطيان ، وتعرض مع ذلك وحسنة تمام بينهم ، هلكني يكون الله سعيداً . - ولا معنى لإله غير سعيد وإلا انتهت عنه لألوهية - كان عليه أن يحب ذاته شخصاً آخر يهب فيه سعادته ومشيى رغباته ، ويكون يأتى صورة لاهمه له ، ولهذا ولله الله الاسم منذ أزل نتيجة لمحبه إلهه . ووجه ذاته ووجه فيه سعادته ومشيى رغباته ، وبذلك الإله الأب هذه المحبة ووجه فيه سعادته ومشيى رغباته . وثمرة هذه المحبة لمحبة دلة بين الأب والإله كانت الروح القدس .

هو الحب إذن يجمع الله واحداً وثلاثاً معاً ، ولا يصح أن يكون هذا الكائن الذى حبس الله محبته عليه ولا الآن . قد يوكان عبر الآن ، بأن

(١) تيموس الكتاب المقدس ، ص ١٦ .

كان بشراً أو ملاكاً ، لكان بطيئة محدودة ، ولكان الله بحاجة إلى من
حدوثه كالأل ، وبعد ذلك نقصاً في الله ، والله مزمع من النفس .

ليس الله إذن كانا ثلثاً في العصور ، معزلاً في السماء ، ولكنه أمره
مؤلفة من ثلاثة أقانيم تسوده ، المحبة ، وتفيض منها على الكون راءته ،
وهكذا يمكننا أن نقول : إن كنه الله بقرص التثيث (١) .

ويقول مزرخيم امروفي الأستاذ ركي شموده : -

• وقد عرف المسيحيون من السيد المسيح أن الله واحد في ثلاثة هم
الأب ، والابن ، والروح القدس . وأن هؤلاء الثلاثة هم طبيعة واحدة ،
وذاة واحدة ، وجوهر واحد مزمع من الثالوث والتركيب وهذه حقيقة
تدرك الإدراك النشوي . وقد فهمنا من كلام السيد المسيح أن الآلهة الثلاثة
الذين هم في واحد وإن اتحدوا جوهراً وطبعا وذاة وحساروا واحداً ، إلا أنهم
ثلاثة لا واحد ، فالأب يس هو الابن ، والروح القدس يس هو الابن
ولا الابن (٢) .

وأعند بل القاري الكريم من الإطالة في النصوص المتقولة بما
لا يتفق مع هذه المذكرات الموجهة . ولكننا عمداً إلى ذلك حتى نتفق
تهمة الاقراء على القوم ، فقد سبق إلى الوم أناضري عليهم حديث الخرافة
هذا . فأثبتنا تلك النصوص التي أشمات على أمرين هامين :

الأول : شرح هذينهم وتوضيحها على هيئة مفصلة .

الثاني : إقرارهم بأن هذه العبادة لا تتفق مع العقل . بل تتعارض مع

(١) بولس إلياس اليسوعي ، يسوع المسيح . ص ٧٦ - ٧٧ م .

(٢) ركي شموده . تاريخ الأقباط . ج ١ ص ٢٢٤ .

بدرجة أفضل وتقتضي حركات العطرة ومن هنا - إحتاجهم الشديد بضرورة
تصليح العقل حتى ينشأ لهم قلوب هذه العقيدة، لا ضرورة أن كانت عقيدة
المخردين من الإلادك ، المناقدين بعمدة التفسير في أدنى درجاته .

ويحتاجنا أن نركز على بعض النقاط التي سجلت في تلك النصوص
لخرجتنا إلهاماً في الحديث عن صفات الوجود باللمسة - سبحانه
وتعالى .

عالمهم يعتقدون أن : إله : الأب ، كان وحيداً ، فأحسن بحاجته
إلى ذات ثابتة توجد معه ويمضي معها ، لذلك أوجد ، الإله الأب ،
تلك الذات ، وكانت تلك الذات هي : الإله : الابن ، وعندما وجد الابن
أحبه الأب حبا شديداً ، وبأدله الاس حبا صلباً ، فنشأ عن أحبه المتبادلة
بسيما إله ثالث هو : الإله : الروح القدس .

والنظر في هذه العقيدة اختلافاً من شرحهم لها وتوصيهم اختصاصها
يرى أن هناك فروقا بين صفات الوجود بالنسبة لله الأب ، وصفة الوجود
بالنسبة لله الاس والله الروح القدس . وأوضح هذه الفروقات أمران :

الأول : أن وجود الله الأب هو وجود بالذات وليس بالغير ، فانه
الأب موجود ، ووجوده لذاته ، فليس محتاجاً في وجوده إلى غيره .

أما وجود الله الاس والله الروح القدس فهو وجود غيري وليس
ذاتياً ، فهما موجودان لغيرهما وليس لذاتهما ، فوجودهم مستمد من الغير
ومستند اليه ، والدليل على ذلك أن الله الآن قد وجد بسبب أن الله الأب
أحسن بالحاجة اليه والرعية فيه ، فأوجده أو ، ولده . ، كما هي حيارتهم ،
ونصها : ، ملكي يكون الله سعيداً ، كان عليه أن يهب ذاته لشخص آخر...
ولذلك ولد الله الاس ، ، ثم نشأ الله الروح القدس بسبب ذلك نتيجة لعلاقة المحبة

التي بين الأب والابن . وعبارتهم قصبا : « ثمرة هذه المحبة المتبادلة بين الأب والابن هو الروح القدس » .

لِذْنِ : الإله الابن والإله الروح للقدس هما موجودان لغيرهما وليس لذاتيهما ، فوجودهما مستمد من الغير ومستند إليه ، وهما محتاجان إلى الغير في وجودهما سواء في أصل الوجود أو في استمراره وبقيانه .

الثاني : أن وجود الله الابن والله الروح القدس هو وجود حادث وليس وجوداً قديماً ، ونعني بذلك أن وجودهما لم يكن ثم كان . وهذا واضح من عقيدتهم ، فهم يعتقدون أن الله الأب كان وحيداً ، فأحس بحاجة إلى ابن ليفيض عليه من محبته وليتبادل معه المحبة ، وكان عليه أن يحب ذاته شخصاً آخر ، ولهذا ولد الله الابن .

وإذاً فقد كان الله الأب وحده . ثم أحس بحاجة إلى ثان فوهب ذاته ابناً ، أو ولد الله الأب الله الابن . وإذاً فهناك فارق بين الوجودين ، أحد الوجودين قديم ، وهو وجود الله الأب ، والوجود الثاني هو وجود حادث قطعا ، وهو وجود الله الابن ، وكذلك وجود الله الروح القدس الذي جاء تالياً لوجود الله الابن .

وهذه حقيقة تفرحها بداهة العقل ومسلات الفطرة ، ولا سبيل إلى إنكارها أو إغنائها . ولا يفهم في ذلك التلاعب باللفاظ لا مفهوم لها ، كقولهم : « ولهذا ولد الابن منذ الأزل » ، فعبارة « منذ الأزل » لا معنى لها ، ولا تفيد شيئا .

فنحن لا نعني باللفاظ والمصطلحات التي يتعمد من وراءها إخفاء الحقيقة أو تغييرها ، ولكن نعني حقائق الأشياء التي تفرحها أوليات العقل وتحتملها مسلمات الفطرة .

(١) بداهة العقل ومسلاته تقضي بأن يكون الأب سابقاً على الابن في

الوجود . وإلا فإن كان وجودهما معاً ، ولم يكن أحدهما سابقاً في الوجود
لما المصوغ لأن يكون أحدهما الأب والآخر الابن . ولماذا لا يكون العكس ؟
وهو أمر لم يحدث فلا مصوغ له أيضاً .

(ب) وبداية العقل ومسلمات الفطرة تقضي بأن يكون الفاعل سابقاً على مفعوله
في الوجود . فإذا كان الإله الأب وحيداً في الأول . ثم شعر بحاجة إلى
شخص ثان يفيض عليه محبته ويسأله إياها ، فوهب ذاته الإله الابن ،
أو ولده ، كما يقولون ، فإن بداية العقل تقضي بأن الإله الأب سابق في الوجود
على الإله الابن . وأن الإله الأب كان أولاً ولا شيء معه ، ثم أوجد الإله
الابن في مرحلة لاحقة . ثم أوجد الإله الروح القدس في مرحلة تالية لوجود
الإله الابن . لأنه وجد نتيجة الحب المتبادل بين الأب والابن فيكون
بعضهما ضرورة .

نصل من كل هذا إلى أن الآلهة الثلاثة في عقيدة النصارى ليسوا سواء
في صفة الوجود التي يتصف بها كل منهم .
فإنه الأب موجود لذاته ، ووجوده قديم .
وإنه الابن موجود لغيره ، ووجوده حادث .
وإنه الروح القدس موجود لغيره ووجوده حادث .

والنتيجة التي نصل إليها من ذلك . أن الإله الابن لا يصلح أن يكون
إلهاً ، ومثل ذلك الإله الروح القدس لا يصلح أن يكون إلهاً . ذلك أن الإله
لا يكون مقتضراً إلى غيره في الوجود . ولا يكون معدوماً ثم يوجد .

فالإله لا يكون محتاجاً لأن الاحتياج نقص . والإله كامل . وإذا كان
الاحتياج هو في صفة الوجود التي هي الصفة الأم — على ما بيننا — فإن
الأمر يكون أوضح من أن يشرح ويفصل . وكذلك لا يكون الإله معلوماً

ثم يوجد موجد . فإن ذلك من شأن الموجودات الناقصة . والإله منزّه عن ذلك .

يبرز من خلال هذه الدراسة الموجزة حقيقة واضحة لا غموض فيها ولا لبهام .

وهي أن التصاري يلزمهم القول بالوجود المطلق ، من خلال عقيدتهم هم ، حيث قد ثبت أن الثلاثة الذين يؤمنون بهم ، لا يصلح منهم إلهاً إلا إله واحد فقط . أما الاثنان الآخران فادعاء ألوهيتهما ادعاء باطل بكل المقاييس . فهما يحتاجان إلى غيرهما في وجودهما . ثم في كل ما يترتب على الوجود من صفات . ثم ما حادثان أي وجودان بعد أن كانا معدومين ، وكيف يكون الإله محتاجاً إلى غيره ؟ ثم كيف يكون الإله سادساً ؟ وذلك الإله الحادث من كان يقرم مقامه قبل أن يوجد ؟ إن كان الوجود في غنى عنه قبلاً ، فهكذا ينبغي أن يكون بعداً . وإن كان مثلك من قام مقامه في الأزل ، فهكذا ينبغي أن يظل السابق هو الإله وليس الحادث .

• • •

وهذا الذي قررناه لم يخف على معشني هذه العقيدة الغريبة . فقد عرفوا أنها لا تستقيم مع عقل أو لا منطق ، وأنها تناقض أبسط المسلمات وأوضح البديهيات .

لذلك كان من قواعد هذا الدين عندهم أنه لا يستند على أساس من العقل أو الفهم . وأنه على من يدّين به أن يبطل عقله ، ويبطل إدراكه ويقبله دون وعي أو فهم .

ومن ثم فقد جرى على لسان عامة طاعتهم وطاعتهم أن حقائق الدين لا يقبلها العقل لأنها فوق إدراكه ، وقد مر بنا قول أحد علمائهم عن أصول دينهم بعد شرح تلك الأصول : « وهذه حقيقة تفوق الإدراك البشري » .

وأصبح من القواعد التي تجري عندهم مجرى الأصول الدينية المسلبة ، أن قواعد هذا الدين وأصوله هي للإيمان وليست للعقل ، وأنه لكي نقتنع بذلك الدين عليك أن تؤمن به أولاً ، ثم يأتيك الاقتناع والفهم بعد ذلك .

فانظر كم هو عجيب أمر إنسان يعتقد ديناً في غيبة من وعيه وإدراكه ، بل والأفضل من ذلك أن يكون على وعي وإدراك يؤمنان له بطلان تلك العقيدة ويدينان له فيها .

ثم إذا كان على الإنسان أن يقبل عقل ذلك المبدأ ، وهو اعتناق دين لا يقبله عقله بحجة أن مبادئه فوق إدراك البشر . فما الضمان للإنسان في أن ما اعتنقه هو الصحيح ، وأن خلافه هو الباطل ؟ وبفاء على أي شيء يمتنع الإنسان ديناً ويترك الأديان الأخرى إذا كان الإنسان يقبل ما يقبل ، ويرفض ما يرفض بعيداً عن العقل والفهم ؟

• • •